

فلسفة إنتاج المعنى في الترجمة المسرحية

د / رأس الماء عيسى

قسم الفنون الدرامية / جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

"إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه، إلا قال

في غده: لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان

يُستحسن، ولو قُدم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان

أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء

النقص على كافة البشر"

العماد الأصفهاني

تعتبر ترجمة المؤلفات القديمة والحديثة منها ترجمات تخون المعاني الأصلية، لأن الأهداف المنتظرة من النص تكون قد ضاعت، ونستشعر هذا الإشكال بصورة أفضل عندما يتعلق الأمر بالنصوص المسرحية، حيث يظهر نجاح ترجمتها أو فشلها مباشرا، لأنها تُعرض على جمهور مباشر.

ولذلك وُضعت للترجمة تقنيات علمية، تساعد المترجم على تخطي معظم الصعوبات التي قد يواجهها عند ترجمة نص معين، وعلى الوصول إلى أفضل مكافئ للنص الأصلي تبعا لنوع النص، ولطبيعة المشاكل التي ينطوي عليها هذا النوع بالذات من النصوص.

أضحت إشكالية ترجمة النص المسرحي من لغة إلى أخرى، من أعقد التقنيات الفنية الأدبية، فكيف يمكن لهذه الترجمة أن تؤثر على البعد الدرامي في العمل المترجم، وأثر فهم المترجم من عدمه لطبيعة النص المسرحي على سرعة أو بطء خط الفعل الدرامي و مسميات العناصر المسرحية الأخرى لإنتاج المعنى؟

" يجب أن تتناسب المناحي التعليمية للمسرح شكلا و مضمونا مع الميولات التي تولد في أحضانها "1 إذ يحاول المسرح دوما المشاركة الإيجابية في إصلاح المجتمع من خلال مناقشة الحقائق التاريخية و المعاصرة، وتحليل جوهرها والتعليق عليها، وللترجمة ومناهج التعليمية بالغ الأثر في عملية تعميم المقاصد المختلفة عبر قنوات الإفهام والإعلام، لذا " فإن معظم الأمم العظيمة لم تكن عازمة على أن تقوى المسرح كتسليية، بل لحل العديد من مشاكلها السياسية والسوسيو ثقافية، ومن خلال وظيفته التثقيفية التعليمية، كان يجب المسرح دوما و بكل حرية عن العديد من الاستفسارات، ليحل بها وجهات النظر المختلفة، حتى تتضح كل الميولات المتضادة فيما بينها "2.

يُكتب النص المسرحي بهدف عرضه على جمهور مباشر، لا لكي يبقى حبيس الأوراق، وكل كلمة فيه تحمل بعدا منطوقا، وهذا ما يصنع كل الفرق والخصوصية المتعلقين بالنص المسرحي بالمقارنة مع النصوص الأخرى، فإما أن يترجم حرفيا فيتم الحفاظ على شكله المكتوب، وإما أن يتم التصرف فيه فيحدث أثره المنشود لدى الجمهور الجديد.

لهذا السبب اندرجت النصوص المسرحية ضمن النصوص الأدبية من النوع الخاص، فهي تكتب وتؤلف بهدف العرض، والأصل أن المترجم للنص المسرحي يهدف إلى تقديم نص مسرحي جديد بهدف العرض أيضا، ولكن هل يمكن لأي مترجم غير عارف بـمميزات النص المسرحي وتقنيات المسرح أن يترجم نصا مسرحيا عرض على جمهور، إلى نص مسرحي قابل للعرض؟ وأقل ما يتوجب على المترجم هو معرفة ملزمة بعلم المسرح وتقنياته وفن الكتابة الدرامية.

يما رس بعض المترجمين عملهم انطلاقا من رؤية خاصة، " فهم يعتقدون أن الأدب الأوربي يمثل تراثا شائعا يستطيعون أن يأخذوا منه ما يحوز على إعجابهم، مهما يكن أصحابه ومستوى كتاباتهم، والمراحل الزمنية التي ظهوروا فيها. "3، سيكتسب هذا

العمل شرعية أكبر إذا استطاع المترجم أن يجري تغييرات في بعض المشاهد أو الفصول، يضيف من عنده أو يقطع لهدف الإيضاح وتحقيق منهج التعليمية في أوساط مجتمعه، ومن ناحية أخرى، نجد بعض المترجمين يعيرون اهتماما أكبر للحفاظ على طبيعة النصوص التي يشتغلون عليها، فيبدون أكثر أمانة ودقة.

ومنه تعتبر الترجمة أسلوبا ينطلق من نص لغة المتن، يؤدي إلى نص لغة الوصل المكافئ على الوجه الأمثل، وهي تتطلب من المترجم أن يفهم العناصر النحوية

والدلالية والأسلوبية وفهم براغماتية النص الأصلي، ويعني ذلك لجوء المترجم إلى أسلوب ترجمة معين أو أكثر من أجل الاشتغال على النص المسرحي بالذات، دون نسيان أن كل كلمة مكتوبة ستدخل في إطار العرض، فهي ذات بعد منطوق وممثل وحركي، وكل هذه التفاصيل من شأنها أن تحدد طريقة الترجمة للوصول إلى أقرب نص مسرحي مكافئ للأصل، أو بالأحرى للوصول إلى إحداث أكثر أثر مكافئ للأثر الأصلي للعمل المسرحي.

" هناك فئة أخرى من المترجمين يعمدون إلى المزج بين البراغماتية والأسلوبية، بغية الاقتراب أكثر من المتلقي العام وعدم الإطاحة بمعنى النص ولغته "4، فهذا النوع من الترجمات، لا ينطوي إلا على تغييرات بسيطة في فعل الترجمة، ومنه يمكن التساؤل : هل يقوم المترجم أثناء عملية اشتغاله على النص المسرحي، بدراسة مدى قابلية المترادفات الإدراكية للترجمة في العمل المسرحي؟ لأن الألفاظ المترادفة تثير مشاكل مفرداتية ودلالية وثقافية في الترجمة، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالنص المسرحي.

" تفرض التعليمية في المسرح المترجم، إلزامية مراعاة عناصر تقنية مهمة، كالمكافئ الشكلي أو مكافئ الفكرة أو المكافئ الوظيفي، لتحقيق التأثير على مستقبل اللغة الهدف، عبر النص المسرحي "5، فهل حقيقة تراعى مثل هذه العناصر أثناء ممارسة فعل الترجمة المسرحية؟

إذا كان الأمر غير ذلك، فستبقى حتما تلك العناصر الثاوية في الخطاب المسرحي مهمة، تظهر في شكل صور لغوية مشوهة، هي بحاجة لمعنى صريح، ومنه أضحى لزاما على محترفي فعل الترجمة المسرحية، التدقيق والتمحيص في بعض المقاربات والمقارنات اللفظية والدلالية، قبل التعرض لعملية تحويل النص، وعليهم إدراك الفروق الواضحة بين الترجمة التعليمية والمهنية والترجمة التأويلية في مجال المسرح.

إن المعنى هو الذي يتعين الوفاء به بالدرجة الأولى أثناء الترجمة، والترجمة قبل أن تكون إعادة إنتاج نص أصلي في لغة ثانية، فهي عملية فهم تهدف إلى نقل نفس المعنى بلغة مختلفة. ولذلك لا نستطيع التحدث عن الأمانة للغة المترجم عنها بل الأمانة للمعنى، باعتباره تركيبا غير لغوي يتم بواسطة الإجراء التأويلي. وفي اعتقادنا تقوم الأمانة على أساس ثلاثة عناصر : قصد الكاتب، اللغة المستهدفة والقارئ، وهي لا تنفصل عن بعضها البعض، وإذا اقتضت الأمانة على عنصر واحد فقط منها ويخون المترجم العنصرين الآخرين، فهو لن يكون أميناً للمعنى، وقد بينت العديد من التجارب أن مسؤولية المترجم هي التي تحدد خياراته طبقا لشكل النص الذي بين يديه، وكل نص ينفرد بتجربة خاصة في هذا الميدان تحدد التوازن بين الأمانة والحرية لمترجم ذلك النص.

وبما أن العلاقة بين العمل الأصلي والمترجم ليست علاقة هوية، بل علاقة تكافؤ في الوظيفة والرسالة، فإن ذلك التغيير الذي يحدث أثناء الترجمة بين الأصل والهدف، وذلك الانزياح في الزوايا هو أمر جائز إلى حد ما، وذلك ما يبرر امتلاك النص من طرف المترجم، وهو في نفس الوقت نتيجة قهرية في نوع النصوص المسرحية، وكذلك رخصة تسمح له بالمرور نحو الحرية، في سبيل إحداث نفس الأثر الأصلي في الترجمة.

ويبقى من أهم الإشكالات المطروحة في عملية ترجمة النص المسرحي، كيفية تفادي التكافؤ الأحادي المعنى، بين الدال الأجنبي ومدلوله؟ الأمر الذي يدفع

بالمتلقي مشاهدا كان أم قارئاً إلى ممارسة ترجمة ذهنية سريعة، يصعب السيطرة عليها، إذ من الممكن جداً أن تكون مغلوطة، لذلك أصبح من المفيد إعادة النظر في وظيفة الترجمة الإيجابية حينما يتعلق الأمر بتعليمية المسرح، ينبغي علينا والحال هذه، أن نميز بين الترجمة التعليمية والترجمة بمفهومها الواسع في العملية المسرحية، وتحديد الوظائف والسمات الخاصة بكل نوع، لضمان الحد الأدنى من سلامة الصور التعبيرية المتتالية عبر العلامات الخطية في النصوص المسرحية، لتسخير سبل تسهيل الاندماج الوجداني والتخيلي والجمالي والمعرفي على السواء، ونظراً لصعوبة المهمة، "على المشتغلين في حقل الترجمة المسرحية إجادة لعبة تبديد مخاوف اللاتّواصل، والحذر من انزلاقات تشويش المعنى وقلق العبارة في نقل أحداث النص الدرامي من لسان إلى آخر"6، وانطلاقاً من ذلك يجب أن نضع في عين الاعتبار المسار التفسيري والتأويلي الذي يسلكه المترجم لدى ترجمته للنص المسرحي الأصلي، لأن ذلك سيساعده على ابتكار أقرب تكافؤ من الأصل، أي أنه لن يغرق في متاهات لا تؤدي غرض النص بتاتا، لذلك من المهم تقفّي أثر السياق النصي والمحافظة على الحبكة، وتجسيدها لكل هذه الاعتبارات، تبقى الغاية المنشودة من ترجمة النص المسرحي هي إيصال نفس الأثر الذي أحدثه النص الأصلي على جمهوره في زمن تأليفه، مع الإشارات الاجتماعية والثقافية واللسانية والنفسية والسياسية التي تكون هذا التأثير، وهنا يمكن الإشارة إلى إشكالية الترجمة الآلية للنصوص المسرحية، بمعنى: هل ما أنجزته التقنيات الحاسوبية، يشفع بالحديث عن ترجمة آلية مكتملة، لها كفاية العبور من التحليل إلى التوليد؟

من الواضح أن بعض المهتمين بشؤون الترجمة المسرحية، لم يدركوا بعد الوظيفة الاجتماعية للمسرح كقيمة، فغيّبوا مفهوم المتعة كقيمة إنسانية أيضاً، ولم يربطوا جمال المسرحية بفائدتها، إذا كانت وظيفة المسرح الأساسية في بعدها التعليمي هي في خدمة التعلم.

"هناك من يجزم أن لاقيمة للفن الذي لا يهدف سوى للتعليم، ويعتقد أنه سيفعل ذلك بالقوة، دون مراعاة الأساليب المختلفة للفنون، وهذا طبعاً لن يعلم الجمهور، لأنه عديم المتعة."7

يؤلف النص المسرحي أساساً من أجل عرضه والعرض يحدث أثراً فنياً تتحقق من خلاله المتعة لدى الجمهور، وترجمة النص المسرحي من المفروض أن تؤدي إلى نص جديد بهدف العرض أيضاً وبالتالي إحداث نفس الأثر الذي أحدثه النص الأصلي لكن على جمهور جديد، ولهذا الغرض يتعين على المترجم أن يتذكر عناصر عديدة في العمل الأصلي ويسقطها على العمل الجديد حتى يكتمل الأثر لديه، وهذه العناصر هي من يساهم في صناعة الفرجة مثل: التمثيل، الحركات، الإيماءات، الإشارات، الملابس، الديكور، الإضاءة، الحوار، الإيقاع الكلامي، الجمهور، الثقافة، الحضارة، البعد الزماني والمكاني المختلف... الخ.

ولهذه الأسباب تكون ترجمة النص المسرحي بمثابة إعادة إنشاء نص جديد، لأن متلقيه ينبغي أن ينسى أن العمل مترجم، وينبغي أن يفهمه ويتأثر به مباشرة في إطار الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والزمنية والمكانية والثقافية التي يعيش في خضمها، وحتى ينجح المترجم في إعادة إنشاء النص، عليه أولاً أن يمتلك النص المسرحي برمته.

"يقوم نقل الأثر المسرحي في الترجمة على الجمع بين الرؤى الفكرية التي يحملها النص في حد ذاته والشكل الفني الذي يقوّل فيه هذا المضمون، ثم نقل هذه الكلمات المترجمة والعبارات الحوارية إلى عرض مسرحي تتألف فيه السينوغرافيا والكوريغرافيا والنص المكتوب لينتج من الكل عرضاً مسرحياً."8

إن الحفاظ على وحدة النص المسرحي في نظرنا، تقوم على احترام عدد من الثوابت والتي تعد غير لسانية بشكل عام، فمن المهم أن يحافظ النص على

شكله المسرحي الأدبي، ووظيفته الجمالية، وأن يكون الأثر الناتج عن اجتماع المعنى والشكل، الهدف المنشود من الترجمة قبل أي اعتبار آخر، ومن المهم أيضا عدم المساس بـ"الخطوط العريضة" في المسرحية كالحبكة والموضوع، حتى يتحقق أكبر تكافؤ في المعنى، ولا يتم استعمال التصرف إلا إذا كان عدم استعماله يؤدي إلى ضياع الأثر المسرحي.

تعتبر الترجمة المسرحية حساسة، نظرا لجانب العرض فيها، فهي تشاهد على المباشر من طرف جمهور يعرف قواعد اللعبة الدرامية، وتُعرض في مكان محدد وتاريخ معين، وبذلك إما ستكون حية أو لا تكون، ولذلك اختارت هذه الترجمة المميّزة جدا أن تتصف بالتصرف، في نفس الوقت الذي تكون فيه أمينة ومحترمة الأصل وستبقى دائما الترجمة المسرحية الحقيقية هذا النوع من الترجمة المنسجمة، وفي هذا الصدد يقول جورج مونان "أن ترجمة العمل المسرحي الكبير، ينبغي أن تعاد كل 50 سنة، من أجل التوفيق بين إنتاج أدبي من جهة، والفكر والإحساس والمجتمع واللغة من جهة ثانية، لأن هذه الأخيرة تكون قد تطورت وتغيّرت عبر الأزمنة."9

انطلاقا من رأي جورج مونان، يتضح جليا أن المترجم الذي يهمل بترجمة عمل مسرحي عليه الإلمام بخصائص النص الأصلي وأغراضه، فهو يحتاجها أولا حتى يفهم بصورة أحسن نص المسرحية التي بين يديه، ويصل إلى تفسير أغراض مؤلفها الأصلي، كما يحتاجها ثانيا لإتقان نسيج النص الجديد الذي هو بصدد إنتاجه، وهذا النص الجديد سوف يكون خاضعا لعوامل زمانية ومكانية وثقافية وحضارية مختلفة عن النص الأصلي، ويجدر بالمترجم احترام هذا الفارق الزمكاني والثقافي والحضاري، حتى ينجح نصه المسرحي الجديد في إحداث أثر على جمهوره، مماثل لذلك الذي أحدثه النص الأصلي على الجمهور السابق، والذي

قد يؤرخ إلى عشرات السنين التي مضت. إن خصوصية النص المسرحي الكامنة في بعده المكتوب والمنطوق، تجعل من ترجمته نموذجاً ترجيحياً خاصاً، يأخذ بعين الاعتبار كل النص المسرحي كوحدة للترجمة، وكانت نظرية تحليل الخطاب أقرب وسيلة لتحلل النص إلى مكوناته المرئية وغير المرئية للوصول إلى معناه، وتحديد سياقه الذي يكتمل به المعنى.

وانطلاقاً مما تقدم نخلص إلى جملة من الاستنتاجات العامة حول مسألة تعليمية ترجمة العمل المسرحي، منها أن النص المسرحي نصاً أدبياً من نوع خاص جداً، لأنه نص مكتوب يحمل أبعاداً منطوقة وحركية، يقوم على عناصر فنية وتقنية تدخل جُلّها في إطار بناء سياق النص، ولذلك تعتبر ترجمته خاصة جداً، فالتلقي فيها يكون مباشراً إلى الجمهور، لا يفتح المجال بتاتا للتفسير أثناء التلقي، فالترجمة نفسها من شأنها تفسير كل ما يحتاج إلى تأويل وشرح في النص المسرحي الأصلي، لكي يصل واضحاً إلى متلقيه المباشر، وهذا ما يجعل كل الأمانة في النص المسرحي تتعلق بالتأثير المسرحي المباشر، وعلى أساسه يقوم التكافؤ في الترجمة.

يتوجب على مترجم النص المسرحي، اكتساب قدرة حسية ومهارة وذكاء للوصول إلى لمّ سياق النص، ومن ثمّ توظيف إبداعه الخيالي ودقته التفسيرية والإدراكية، ليصل إلى ترجمة مثالية، تكون عادةً بخلق وضعيات جديدة تماماً؛ والتصرف في حالة النص المسرحي يكون ذا هدف تعليمي فني غرضه الإفهام وتحقيق المتعة لخلق المشهدية الفنية لدى المتلقي، وكذا احترام سياق النص المسرحي، والتحكم في الوضعية نفسها التي يكون المترجم بصدد البحث عن مكافئ لها، وتحديد إستراتيجية واضحة لُبّعد العرض المباشر الذي يحيط بالترجمة المكتوبة للنص المسرحي.

إن احترام المترجم لهذه العوامل، وانتهاجه أسلوب الدقة المنوط بالعملية التعليمية في الحالات المذكورة، هو ما يجنب المتلقي مشقة التفسير، والسهو عن أحداث العرض المسرحي.

وفي الأخير، يجوز لنا أن نتساءل عن حال المسرح المترجم ببلادنا في الوقت الراهن، فالظاهر أنه تحول إلى شكل كلاسيكي جامد، بحيث أصبح من الصعب علينا تناوله وتوعية جمهور داهمته التكنولوجيا الرقمية وميديا البشاعة والبلادة.

فهل يمكن أن يكون للمسرح فاعليته التعليمية، داخل أمة لا تميل إلى مناقشة مشاكلها في المسرح؟

الهوامش :

1- البطاينة، لينا " المسرح في التعليم "مجلة المسرح ، العدد 98 - 90 ، يناير / فبراير 1997 القاهرة.

2- الدسوقي، عمر " المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها " ط 5، القاهرة، 2003 دار الفكر العربي .

3 - الزبود، نادر وآخرون " ترجمة التعليم المسرحي " الأردن، 2002 . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

4- القرشي، أمير " المناهج والمدخل الدرامي " القاهرة ، 2001 عالم الكتب

5 - اللوح، أحمد " برنامج مقترح في المسرح التعليمي لتنمية مهارات الاتصال الشفوي في ضوء مدخل التواصل اللغوي " رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، 2004، القاهرة.

6 - حسين ، كمال الدين " المسرح التعليمي " القاهرة ، 2005 ، الدار المصرية اللبنانية .

7 - عطا، إبراهيم " مناهج الترجمة بين الأصالة والمعاصرة " القاهرة 2005، مكتبة النهضة العربية .

8 - فرقاني، جازية، " خصوصية ترجمة النص المسرحي "، مجلة المترجم، العدد 1 - 2001

9 - Mounin, Georges, *Les belles infidèles*, Presse universitaires de Lille, Paris, 1994.